المحاضرة الثامنة

الأسس النفسية للأبداع الفني(مصطفي سويف)

مقدمة :

يُعدّ الإبداع الفني من أرقى أشكال النشاط الإنساني، إذ لا يقتصر على كونه إنتاجًا جماليًا فحسب، بل يمثّل تعبيرًا عميقًا عن الحياة النفسية للمبدع. وقد سعى علم النفس، منذ بداياته الحديثة، إلى الكشف عن الأسس النفسية التي يقوم عليها هذا الفعل الإبداعي، من خلال دراسة العوامل الداخلية التي تسهم في نشأته وتشكّله، مثل الشعور واللاشعور، والخيال، والدوافع، والصراع النفسي. ومن النقاد الذين اهتموا بشأن الإبداع الفني هو الناقد مصطفى سويف الذي يؤكد أن العمل الفني تعبير هو تجربة شعورية عميقة، تتحوّل أثناء العملية الإبداعية إلى بناء فني جمالي مستقل يخضع لقوانين الجمال والذوق، لا لمجرد التفريغ النفسي.ومن هذا المنطلق، تقوم الأسس النفسية للإبداع الفني عند مصطفى سويف على دراسة الدوافع والانفعالات والخيال والقدرات العقلية، مع رفض التفسير المرضي للإبداع، والتأكيد على أن التحليل النفسي للفن ينبغي أن يكون مكمّلًا للتذوق الجمالي لا بديلًا عنه. وبذلك تسهم رؤيته في تقديم فهم علمي متوازن للعلاقة بين النفس والإبداع الفني.

أولا - تجربة مصطفى سويف في الإبداع الفني:

تمثّل تجربة مصطفى سويف في دراسة الإبداع الفني محاولة رائدة في النقد النفسي العربي، إذ انطلق من علم النفس العلمي والتجريبي لفهم الظاهرة الإبداعية، بعيدًا عن التفسير الانطباعي أو المرضي. وقد نظر إلى الإبداع الفني بوصفه نشاطًا نفسيًا إنسانيًا معقّدًا، تشترك في تكوينه عدة عوامل نفسية وعقلية ووجدانية.

وقد تكون دراسة "مصطفى سويف "في كتابه "الأسس النفسية للأبداع الفني في الشعر خاصة "أحسن ما كتب في هذا المجال ،إذ يعتمد في بحثه على التجربة الميدانية ،فهو يستخدم طريقة "الاستبيان" أو "الاستخبارات " "التي أرسلها إلى مجموعة من الشعراء في مصر والاقطار العربية طالبا منهم أن يجيبوا عن أسئلة معينة وأن يصفوا تجاربهم النفسية في أثناء إنشاء القصيدة." وهذا من أجل الوصول إلى استقصاء نفسي شامل لكل ما يحيط بالعملية الإبداعية والمبدع معا.

1-نص الاستخبار : ويقصد بالاستخبار هو تتبع قدر الإمكان عملية الابداع لدى عدد من الشعراء ،وهذا بعد ان يضع لهم أسئلة معينة تخدم العملية التحليلية للنص الابداعي وهي كالآتي:

1-إذا استطعت أن تتذكر عملية الابداع كما جرت في آخر القصيدة لك، فالمرجوّ أن تتبّع حياتها في نفسك ،هل عاشت في نفسك صورها واحداثها كاملة قبل النظم؟ أم هل بزغت وقت النّظم فحسب؟ وإذا كانت قد عاشت قبل النّظم، فهل عاشت حياة جامدة ،أي انها ظهرت فجأة كاملة، وظلّت كما هي حتى انتهت من كتابتها أم تطورت في حياتها قبل الكتابة أو في أثنائها ،وجعلت تمتلئ وتتّضح في بعض نواحيها وتتضاءل وتتلاشى في نواح أخرى؟

2- وإذا صح أنها تطورت وتغيرت فهل تمارس أنت عملية تغييرها؟ أن تشعر بأن الأمور تجربة بعيدة عن متناول قدرتك ،وكل ماهناك أنّك تشهد آثار التغيّر؟

3-ألك عادات تمارسها ساعة النظم أم لا (جوّ خاص، حجرة خاصة، قلم خاص ، حبر خاص إلخ؟

4- أتشعر بوجود صلة بين أحداث حياتك الواقعية ،وبين ما ترد في قصائدك من احداث وصور ،وإذا كانت صلة يحسها الشاعر ،فليحدثنا إذا عما يشعر به إزاء ما يرد عليه من صور وأحداث يضمنها أعماله ،أيشعر من أين تأتي وكيف؟
5- أترى نهاية القصيدة قبل تبلغ هذه النهاية ؟ وإذا كان الأمر كذلك ،فهل تراها واضحة أم لا؟ وإذا لم تكن تراها، فما الذي يحدد لك أن هاهنا ،قد بلغت النهاية' وإذا كنت تراها فهل تنتهي القصيدة حيث كنت ترى؟

وقد أجاب على هذا الاستخبار عدد غير قليل من الشعراء ؛فمن(سوريا)ذكر الباحث خليل مردم بك ،ورضا صافي، ومحمد مجدوب، ومن(العراق) محمد بهجة الأثري ،ومن 'مصر) محمد الأسمر، وعادل الغضبان، وأحمد رامي".

ثانيا - النتائج :لقد توصل مصطفى سويف بعد استقراء أجوبة الشعراء وتحليلها إلى النقاط الآتية:

1-تتفق خمس إجابات على الشهادة بان معظم القصائد لا تبزغ دفعة واحدة من دون أن يكون لها مقدّمات .والاجابتان الخاصتان بالشاعرين رضا صافي ،ومحمد الأسمر لا تشذّان عن هذا الرأي ، ولكنهما توضحانه.
2-تتفق كل الإجابات على الشهادة بأن الأنا لا تسيطر على عملية الابداع حتى في النوع الذي يبدو فيه مظهر (الارادية)،بل يشعر الشاعر في معظم اللحظات أن المعاني حينما تجول براسه ،هي التي تبحث عن ألفاظها اللائقة بها،أو أن قدرة خفية هي التي تملي عليه،أو أن الخواطر لها قدرة على جلب بعضها بعضا، بينما يقف الأنا بلا حول ولا قوة...
3-تتفق الإجابات على انتحاء المكان الخالي في أثناء ممارسة الابداع ،ودلالة المكان الخالي تتمثل في أنه يساعد استمرار بروز مجال الابداع وسلبية الانا..
4-جاء في إجابة "مردم بك" و"رضا صافي" وصف دقيق للتغير الذي يطرأ على مجال الشاعر في لحظات الابداع ..وربما كانت هذه اللحظة ،أعنى لحظة ظهور الدلالات ،هي أحق لحظات العملية كلها باسم الالهام ،ويبدو أنها اشد اللحظات غموضا.
5-للاحداث الواقعية والمشاهدات والاطلاعات التي تحدث في حياة الشاعر صلة بما يبدعه ،لم ينكرها أحد من المجيبين ،لكنهم جميعا يرون أنها صلة غامضة ،فهم يلمسون في قصائدهم آثار واقعهم ...
6- من خلال إجابة الشعراء عن السؤال الخاص بالنهاية ،وكيف يتعرفون عليها، نكشف عن عامل مهم في عملية الابداع ،هو التوتر الذي يقوم كأساس دينامي لوحدة القصيدة ،بحيث يمكن أن نقول إن الشاعر يتحرك في حدوده ،وفي اللحظة التي ينتهي فيها هذا التوتر تكون نهاية القصيدة ،ومع اختلاف الإجابات اختلافا يكاد يشفّ عن التعارض، فإنها جميعا متفقة في الحقيقة الدينامية التي تعبّر عنها."